الاستشراق الفرنسي

وتوظيفه الاثنوغرافي في احتلال الجزائر

مسعود بودربالة*

إن الشرق الذي اهتم الباحثون الفرنسيون بدراسته والتخصص في ثقافته وتراثه، ليس هو الشرق الجغرافي الطبيعي، وإنما هو "الشرق الهوية" وهو محور ما استهدفه علم الاستشراق[1] ومصدر العناية الاهتمام فهدفه هو معرفة "الشرق الهوية والتاريخ" المتمثل في الإسلام والمسلمين تحديدا، و دراسة التركيبة العرقية وأثرها في تماسك أو زعزعة النظام الاجتماعي و إضعافه، كما كان هذا الاستشراق يمثل الخلفية التاريخية والقاعدة الثقافية في الذاكرة الجماعية الفرنسية، وعليها بني الاستشراق الفرنسي ومنها انطلق، فكان يحمل روح الصراع الديني والعسكري والعدائية التاريخية والزعامة الصليبية.

وهو ما يتبين لنا فعلا من خلال المفهوم الاصطلاحي للإستشراق **Orientalisme** والذي يعني ذلك التيار الفكري المتوجه لدراسة الشرق الإسلامي شاملا حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته[2].

فإذا ما نظرنا إلى الأبعاد التي وضعها ستيفان قزال " Stéphane Gsell" للاستشراق نجد أن المدرسة الفرنسية ذات أهداف استعمارية بالدرجة الأولى، وبالحديث عن الجزائر نجد أنها اعتمدت على إيديولوجية تتمثل في دراسة الجزائر دراسة متعددة الأطراف مع إعطاء أراء ميدانية ثم تنتقل إلى تطبيقها على المجتمع الجزائري لتحقيق الاستعمار من خلال تفكيك المجتمع[3].

و قد ركز على أمور أساسية منها :

- محاولة إحياء الموروث الروماني مكان التراث العربي[4]
- حركة النهضة والتنوير الأوروبية وأثرها في ظهور فكرة تمدين بقية الشعوب[5]

وهذا ما جعل فرنسا تشعر بالتفوق أمام الشعب الجزائري، إلى جانب ذلك أن هذا التطور جعلها تبحث عن أسواق خارجية لمنافسة خصومها، فكانت معرفتها لتراث الشرق بمثابة دليل

* طالب(ة) تلمسان

المنارة للاستشارات

للحكومة الاستعمارية لفرض سيطرتها وتعديل خططها السياسية لتكون مطابقة لما تقتضيه الأوضاع.

فقد كان الاستشراق الفرنسي نحو الجزائر يحمل في ظاهره أهداف علمية معلنة، لكن في طياته يحمل أهداف خفية تعمل على فهم الشعوب وتوطين الاستعمار، وفي ذلك نتجه إلى ما جاء من رحلات وبعثات إلى شمال إفريقيا وخاصة منها إلى الجزائر في القرن 18م التي أصبحت فيما بعد مادة أولية في الدراسات الاستشراقية.

عندما يذكر الاستعمار الفرنسي للجزائر يتبادر الى الاذهان مساهمة أصناف المستشرقين بمختلف صفاتهم؛ العسكريين ورجال الدين قساوسة ورهبان والجواسيس...، إلى غير ذلك من الذين رافقوا الحملة الفرنسية إلى الجزائر، الكل طبق طبق سياسته من جانبه لخدمة فرنسا في تحقيق مشروعها الاستعماري.

و الملاحظ أن جل دراسات المستشرقين في تلك الفترة انكبت حول محاور ثلاثة كانت و مازالت تحتل مكانة مهمة في دراساتهم و يتعلق الأمر بالعِرق و الدين و اللغة، و معرفتها تكفي لمعرفة الواقع الإثني للمجتمع و الأطياف المشكلة له، و يمكن و من خلال توجيه هذه المقومات، و من خلالها توجيه المجتمع للوجهة التي يريدها المحتل .

و من أجل تحقيق ذلك نجد أن المستشرقين قد استخدموا وسائل مهمة لتمكنهم من انجاز بحوثهم الاجتماعية و يؤدوا دورهم الكبير في التهيئة والتمهيد لاستعمار العالم الإسلامي و ليس الجزائر وحدها[6]. و من أبرزها:

- نشر الآثار القديمة.
- تكوين الجمعيات المختصة و الصحف و الدوريات التي تحفظ الاكتشافات التاريخية وتعرف بها.
- إنشاء اللجان العلمية و منح الرخص للأفراد للقيام بعمليات البحث والجمع.[7]

ففي مجال نشر الآثار القديمة عن الجزائر قد تم تسخير مجموعة مهمة من المستشرقين لإجراء أبحاث ودراسات تحليلية لهذا التراث وترجمته إلى اللغة الفرنسية والقيام بنشره[8].

المنارة للاستشارات

ففي سنة 1830 نشر الفرنسيون كتب الرحلات والانطباعات التي كتبها الأوروبيون عن الجزائر خلال العهد العثماني مثل **دان ديغودي هايدوا Diego de haedo**و **فانتوري دي برادي V. De paradis**[9] عادوا إلى كتب المؤرخين والرحالة العرب كابن خلدون الذي اعتبروه من أكبر المؤرخين فحققوا الجزء الخاص ببلاد البربر من كتاب العبر ونشروه في جزءين ثم تمت ترجمته إلى اللغة ألفرنسية كما ترجموا كتابات البكري و العياشي ... و قاموا بنشر مراسلات دايات الجزائر مع فرنسا.[10]

إن هذه العملية صبغت معظم الدراسات الاستشراقية في الجزائر بصبغة واحدة و جعلتها تدور بكاملها في فلك التعرف على اشكال التنظيم الاجتماعي للمجتمع الجزائري و كذا علاقة الاهالي بالدين الاسلامي و مدى تأثير المؤسسات الدينية المختلفة من طرق دينية و زوايا و كتاتيب...

كما أنها تسعى إلى تدمير الخصوصيات المختلفة للمجتمع الجزائري وإعادة تشكيله على أسس جديدة تجعله مجتمعا خاضعا للسيطرة الفرنسية،[11] معتمدين في ذلك على دراسة تاريخ الجزائر بهدف مد السلطة الاستعمارية بالطرق المساعدة على إرساء الاحتلال، وكذا تبرير الوجود الفرنسي في الجزائر و تحضير العنصر الجزائري لتقبله، وإقناع الجزائريين بأنهم عاجزون عن تسيير شؤونهم المختلفة بأنفسهم و بأنهم غير قادرين على صنع حضارة إلا بوجود الاجنبي معهم.[12]

وقد اشرف على هذه العملية أو الحركة الفرنسية الفكرية مجموعة من المستشرقين فكان منهم الموضوعيون ومنهم المادحون و منهم المنتقدون المشوهون لحقيقة الجزائر والإسلام والمسلمين.[13]

فالبعض رأى في الاستشراق دسًا على الشرق و الاسلام خاصة و مؤامرة عليه لتشويهه و تلطيخ تاريخه و البعض نظر اليه أنه في خدمة المصالح الاستعمارية على وجه الخصوص.[14]

حاربت السلطات الفرنسية اللغة العربية بمختلف الوسائل ففرضت لغتها الفرنسية ووظفت اللغة العربية لمصالحها الاستعمارية.

وذلك بتجنيد فرقة من المترجمين للقيام بهذه العملية و اطلق عليهم "فرقة المترجمين العسكريين ومنهم القسيس، والمدرس، التاجر، و العسكري، وقد كان بعض هؤلاء من مواليد مصر وسوريا و بعضهم من تلاميذ **سيلفستر دي ساسي De Sacy** [15] عميد مدرسة اللغات الشرقية بباريس

المنارة للاستشارات

ومن المترجمين الشرقيين نذكر **زكار zakar** الذي تعاون مع دي ساسي على ترجمة البيان الفرنسي للجزائريين قبيل نزول الحملة اضافة الى **جوني فرعون Pharaon Joanny**.[16].

وبعد الحملة احتاج النظام الاستعماري الى معرفة البلاد و أهلها و كانت اللغة العربية الوسيلة الضرورية لهذه المعرفة، حيث يقول احد المستشرقين الفرنسيين : " لقد كان على السادة الجدد (يعني الفرنسيين) ان يستعملوا اللغة العربية في الادارة و فهم السكان و لا يمكن مطالبة الجزائريين بتعلم لغة الغزاة فورًا".[17]

فاللغة العربية في الجزائر كانت لغة الحديث و التواصل منذ قرون و دراستها تقدم للفرنسيين فوائد جمة، بحيث يتعرف الفرنسيون على حاجة الجزائريين و رغباتهم وألامهم، و جعلهم يعتقدون أن الفرنسيين هم حماة لمصالحهم و ممدنين لبلادهم و ليسو غزاة تساندهم الاسلحة.[18]

نماذج من المستشرقين المترجمين:

إن "بيانشي **Bianchi**" الذي كان أمينا عاما ومترجما لملك فرنسا، و الذي عمل لمدة سنتين مع الكونت برو ترنو يار، أكدوا على أهمية و ضرورة المترجمين في الحرب و يجب أن يكونوا على علاقات مع الأهالي، لذالك عملت الحكومة الفرنسية على اختيار مترجمين أذكياء وموثوق فيهم لمساعدتها في الحملة.

فكان الحاكم العام الفرنسي آنذاك هو الذي يعين المترجمين في الجزائر ومن هؤلاء المترجمين نذكر منهم:[19]

1. جون شارل زكار Jean Charles Zakar[20]

استدعته الحكومة الفرنسية لكتابة تقاريرها الرسمية الموجهة للأهالي الجزائريين لإتقانه للغة العربية، لدرجة أن الجنرال ديبورمون Debormentيثق فيه كثيرا، ونتيجة هذه الثقة أنه يترجم له تلك الرسائل التي بعثها إلى الباشا حسين إلى اللغة العربية، سمي بذلك المترجم من الرتبة الأولى في 03 افريل 1833 ثم مترجم رئيسي في 17 أفريل 1839 ثم أصبح مترجم مساعد في 1848 [21]

و قد شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر، و ارتبط بالحكام العاميين منذ عهد الجنرال ديبورمون إلى عهد المارشال بيجو، قائما بدوره الأساسي وهو الترجمة وهو أول من اشتهر باللغة

المنارة للاستشارات

قاموس عربي–فرنسي، انظر كتاب: سعد الله، ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 1، 1996، ج 4، ص 22.

16 – أبو القاسم سعد الله ، ابحاث وأراء ،المرجع السابق ،ج2، ص23.

17 – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج2، ص 23.

18 – أبو القاسم سعد الله، مرجع نفسه، ج 2، ص .24،25.

19 – Féraud, Ibid . p p. 76.68

20 – جون شارل زكار: ولد في 19 جانفي 1789 عاش في لبنان التجأ بعد ذلك إلى مارساي ثم عمل في الكنيسة في 1830، توفي في 22 فيفري 1852. انظر الكتاب:Ibid. p p. 182,183

21 – Féraud , Ibid,pp.182.183

22 – Ibid,P. 183

23 – Ibid, PP. 183.184

24– Feraud,op.cit. PP. 190,191.

25 – هنري ريمزا: ولد في 28 مارس 1798 من عائلة فرنسية دخل مبكرا في القنصلية الفرنسية في سوريا في 1830 أثناء قضية بعثات المترجمين إلى الجزائر كان هنري يريد التطوع إلى هذه البعثة هنري أولى برغبته الملحة بمساعدة و خدمة الدولة الفرنسية و اثبت ذلك لخدمة مدينة طولون و في 10 ماي قبل من طرف الجيش ليكون احد المترجمين لهم و بالتالي ساهم في الحملة، انظر الكتاب: Ibid,P.191.

26– Féraud ,Ibid, PP 191, 192

27 – Ibid. P.193

28 – Feraud,op.cit. P, 207

29 – Féraud ,Ibid , P.207.

30 – – أحمد عبد الرحيم السايح الإستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي ،الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1996. ص، 34.

31 – إبراهيم لونيسي: المرجع السابق، ص 183.

32 – إبراهيم لونيسي مرجع نفسه، ص 183.

33 – عبد القهار عبد الغاني : الاستشراق والدراسات الاسلامية، دار الفرقان للنشر، ط 1، 2001، ص 30.

34 – احمد عبد الرحيم السايح، المرجع السابق، ص 36.

35 – Toqueville Alexis, œuvres complet.TIII Paris, 1962, P.323

36 – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة التعاونية، ط 1، د. س، ص ص 27،28 .

المنارة للاستشارات

37 - Toquville, OP.cit, P 324. .

38 - Ibid. P.324.

39 – محمد السيد الجنيد، الاستشراق و التبشير، قراءة تاريخية، دار فياء للطباعة، د. س، ص 37، 38.

40 – ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي بيروت،1998،ج2، ص 344.

41 – بيليسي رينود:Pellissier Rynaud تولى ادارة المكتب العربي 1834 وتعيينه راجع لقدراته على اللغة العربية ومعرفته سلوكيات السكان، و كان من أهم المترجمين له عدة مؤلفات مهمة في التأريخ لفترة الاحتلال من بينها حوليات جزائرية. أنظر كتاب :

Arsime Berteuil, l'algerie francaise, paris deutu librairie editeur palais- royal 15 galerie vitree 1856. P 268

42 – أبو القاسم سعد الله :أبحاث وآراء ،ج4، ص20،21

43 – أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء، ج 4، ص 20،21 .

44 – خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر1830،1871 ، دحلب، د.س، ص23 .

45 – – خديجة بقطاش، مرجع نفسه ، ص 24 .

46 – عميراوي احميدة، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث ، دار الهدي، عين مليلة، ص99.

47 – عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ ماقبل التاريخ الى1962 الجزائر خاصة،دار المعارف،الجزائر،2006،ج2، ص263.

48 – أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية1830-1900، دار الغرب الاسلامي:بيروت، لبنان، ج1، ص25.

49 – فرنال: قائد كتيبة تابع لقيادة الأركان. (فرنال، حملة إفريقيا 1830، دون مترجم، دار الرائد للكتاب، الجزائر،2014، ص1.)

50 – فرنال، المرجع نفسه، ص32.

51 – أحمد باي، مذكرات أحمد باي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر، 1981، ص11.

52 – فرنال: مصدر سابق، ص34.

53 – عمار عمورة: مرجع سابق، ص264-265.

54 – ناصر الدين سعيدوني، رائد الدراسات العثمانية في الجزائر، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية و التاريخية- جامعة معسكر، 2014، ، ص153.

المنارة للاستشارات